مسيرة التعليم بالمملكة

من مديرية المعارف و مدرسة تحضير البعثات و دار التوحيد إلى مشروع الملك عبدالله لتطوير التعليم

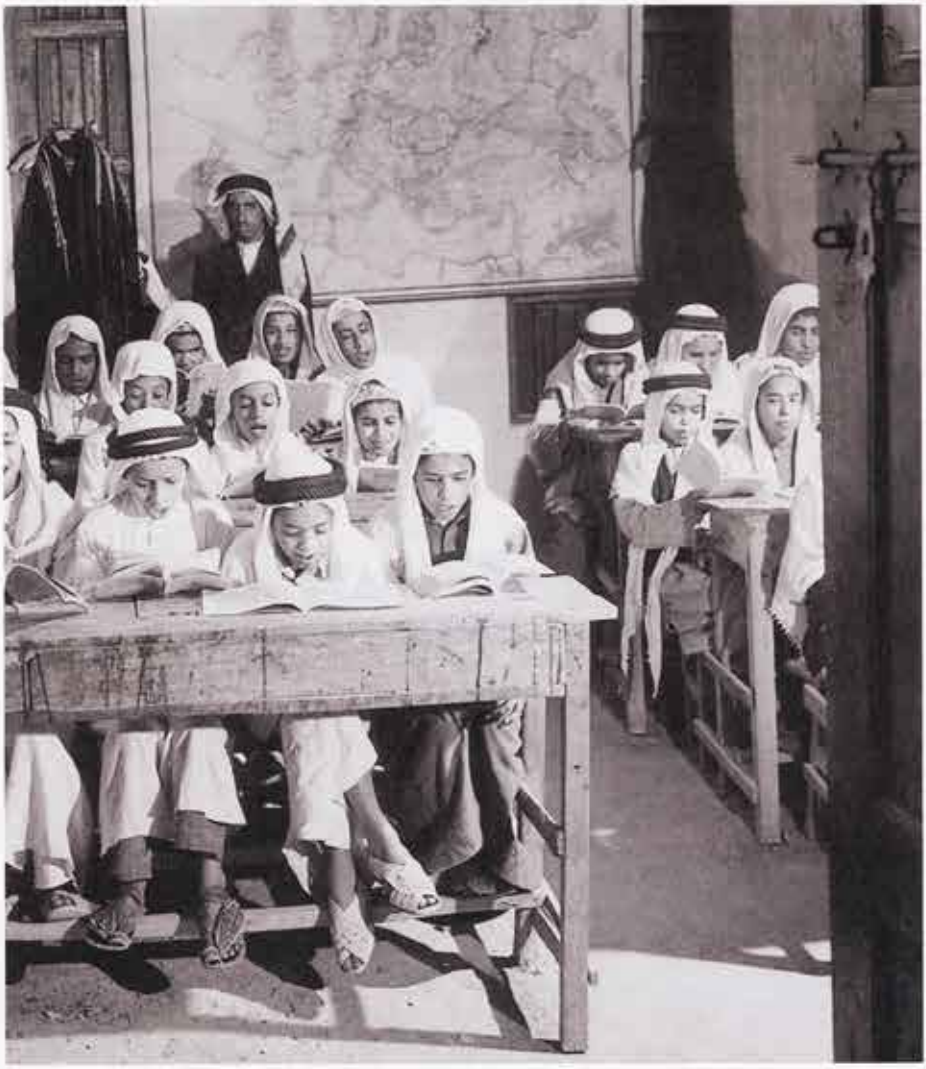

د. سعيد عطية أبو عالي - الدمام

يتميز التعليم في المملكة العربية السعودية بمصادره الفكرية التي يعتمد عليها، والدين هو المصدر المحوري الذي قام عليه التعليم. والأخلاق وهي مصدر رئيس ليست رؤى فلسفية. بل إنها ممارسة يومية في حياة الإنسان. وطلب العلم فريضة (إلزام) على كل مسلم ومسلمة. والقرآن يدعو إلى العلم، والعلم محكوم بمبادئ أخلاقية فلا علم بدون عمل، والعلم مسخر لرفاه الإنسان وسعادته. وأصحاب العقول هم: ﴿الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض﴾ (سورة آل عمران، الآية ١٩١).

واللغة العربية وعاء التربية والتعليم. والهدف الأسمى للتربية هو إعداد الإنسان السوي الذي يثق بنفسه «من غير تعالٍ على غيره سواء كان هذا الـ(غير) من أبناء الإسلام أو من غيرهم لأن الثقة بالنفس تتمثل في الإحساس بالمسؤولية والشعور بالآخر «والتربية عمومًا» تأتي في إطار النظام الشامل للحياة، وبهذا تكون.. جزءًا من منظومة حضارية قيمية تشمل الإنسان والكون والحياة»[1].

والتاريخ يحفظ لمسيرة التعليم في المملكة العربية السعودية منعطفات (مراحل) تاريخية مفصلية كان من نتائجها تحويل المجتمع الذي كان يعاني تفشي الأمية التعليمية إلى مجتمع عصري يلتزم ثوابت الدين والأخلاق، ويأخذ بأساليب الحياة المتطورة التي أنتجها العلم والتقنية. ولعلنا في هذه العجالة نتطرق لأهم المراحل:

أولاً: البدايات:

منذ أن دخل الملك عبدالعزيز - رحمه الله - إلى الرياض فجر يوم الخامس من شوال عام ١٣١٩هـ جعل التعليم هدفًا أساسًا ومحوريًا في إعداد الناس وبناء البلاد، وذلك من خلال المؤسسات التالية:

- مجلس الملك: كان مجلسه مفتوحًا للأعيان والمسؤولين وضيوف الدولة ولجميع من يأتي لمقابلة الملك. يقول خير الدين الزركلي: «وهكذا كان مجلس الملك عبدالعزيز مفتوحًا للجميع دون تمييز..» وتلقى فيه الدروس في الصباح وبعد العصر وفي المساء[2].

- توزيع الكتب والمراجع العلمية: اعتمد الملك شراء أمهات الكتب في الدين والتاريخ والأدب العربي وتوزيعها مجانًا على العلماء والطلاب.

- ديوان المثقفين: حفل الديوان الملكي بالمستشارين المتخصصين في شتى العلوم والمعارف. وإلى جانب أبناء الوطن جاء كثير من رجال الفكر والعلم والسياسة من أرجاء الوطن العربي والإسلامي. ومعظم هؤلاء كانوا في الأصل على خلاف مع حكوماتهم حول صيغة التقدم التي يرغبونها لبلادهم، وبعضهم كان مطاردًا

* مدير عام التعليم بالمنطقة الشرقية سابقًا ومؤسس كلية الباحة الأهلية للعلوم

من قبل السلطات الاستعمارية؛ ولكنهم وجدوا في فكر الملك عبدالعزيز وممارسته «ما جعلهم ينضمون للعمل معه لأن منهجه هو الطريق السوي لنهضة الأمة العربية»[٢].

- دروس في الإقامة والسفر: تميز مجلس الملك بالاستمرار، فإذا سافر تحرك مجلسه العلمي معه. كان يصطحب معه العلماء والمفكرين. وكانت بعض الدروس تلقى على ظهور الإبل أثناء السفر.

- مجالس العلماء: شجع العلماء والقضاة على إلقاء دروس منظمة في منازلهم والمساجد القريبة منهم.

- الهجر: ولأن التعليم للجميع فقد اعتنى الملك بالبدو الرحل فأرسل إليهم الأئمة ليعلموهم أمور دينهم. والملك عبدالعزيز - في نظري الشخصي - أول قائد عربي يهتم عمليًا بتطوير البدو والبادية. كان يرسل إليهم كبار العلماء لشرح أمور الدنيا والآخرة، ولإقناعهم بالاستيطان وترك حياة التنقل وعدم الاستقرار. أسس أول هجرة في الأرطاوية عام ١٣٣٠هـ وبعد عشر سنوات بلغت ٧٢ هجرة في مختلف البوادي ويقيني أن نظام التعليم في الهجر كان دليلاً على تفوق الملك عبدالعزيز.

ثانيًا: مديرية المعارف:

كان دخول الملك عبدالعزيز إلى مكة المكرمة في جمادى الأولى عام ١٣٤٣هـ حدثًا تاريخيًا بجميع المقاييس. اجتمع مساء اليوم الثاني لدخوله مع العلماء من أهل الحجاز وتجد للتعارف ولتنظيم أمور التعليم بالمسجد الحرام. وزار المدارس الأهلية وشجع القائمين عليها والطلاب. وبعد سنة في ٣ رمضان ١٣٤٤هـ صدر أمره بإنشاء مديرية المعارف العامة ومهمتها: «نشر العلوم والمعارف والصنايع وافتتاح المكاتب والمدارس والمعاهد العلمية مع فرض الدقة والاعتناء بأصول الدين الحنيف في كافة المملكة الحجازية» وربطها إداريًا بنائب جلالة الملك في الحجاز ابنه صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن عبدالعزيز - رحمهما الله - (الملك فيصل

فيما بعد) واختار لإدارتها أحد أبناء البلاد هو السيد صالح شطا.

ثالثًا: مجلس المعارف:

وسارت الأمور بعزم وتصميم رغم معارضة بعض المتشككين والخائفين. ففي ٢٧ محرم ١٣٤٦هـ تكون أول مجلس للمعارف ومن مهامه:

- توحيد التعليم في الحجاز.
- جعل التعليم مجانيًا وإجباريًا.
- وضع نظام تعليمي يشمل التحضيري والابتدائي والثانوي والعالي.
- اختيار الكتب الدراسية.
- تشجيع التأليف والترجمة ومنح مكافآت للمؤلفين والمترجمين.
- الإشراف على الامتحانات التي تجرى لاختيار

المعلمين.

- وضع الأنظمة لمسارات التعليم.

- المعهد العلمي السعودي: أوصى المجلس في بداية عام ١٣٤٧هـ بتحويل المعهد الإسلامي إلى المعهد العلمي السعودي ويقوم المعهد بإعداد المعلمين ويقبل أربعين طالبًا وتؤمن لهم الكتب والأدوات الدراسية، ويصرف للطلاب مكافآت شهرية. وفي ٧ صفر عام ١٣٥٠هـ الموافق ١٩٣٠م استقبل الملك أول فوج تخرج في المعهد وكان عددهم ثلاثة وعشرين طالبًا وألقى فيهم كلمة تشجيعية.

- البعثات الخارجية: اقترح ثلاثة شبان في خطاب أرسلوه بالبريد إلى جلالة الملك ابتعاث الشباب للدراسة بالخارج. استدعاهم الملك وناقش معهم الفكرة وأمر بتكوين لجنة لدراسة الاقتراح والشبان الثلاثة أعضاء فيها. وهنا أيضًا تبرز حالة التفوق لدى الملك.. فالعلم عنده للجميع والمشاركة في تنظيمه حقٌّ وواجبٌ على الجميع وهكذا يجلس الشباب مع المسؤولين والمختصين لبحث أسلوب الابتعاث.

أوصت اللجنة بإيفاد أفواج متتالية من الشباب للدراسة بمصر، وعرض الأمر على مجلس الشورى فأقره بالقرار رقم ٣٣ في ٤ جمادى الأولى ١٣٤٦هـ ويصدر الأمر الملكي الكريم باعتماد برنامج البعثات. سافر إلى مصر أول فوج مكونًا من أربعة عشر تلميذًا، ستة منهم من مكة المكرمة وثلاثة من المدينة المنورة وثلاثة من جدة واثنان من الطائف. وخصصت لهم مكافآت شهرية ونزل خاص بالقاهرة ويرافقهم مراقب.. وعاد بعضهم إلى البلاد عام ١٣٥٤هـ يحملون شهادات جامعية في علوم الشريعة والأدب والطب والتجارة.

ثم توالت البعثات بعد ذلك إلى بلاد أخرى مثل بريطانيا وإيطاليا وأمريكا وفي عام ١٣٦٩هـ بلغ عدد المبتعثين إلى الخارج ١٩٢ طالبًا.

- مدرسة تحضير البعثات: واجه الفوج الأول من طلاب البعثات صعوبات دراسية لأنهم لم يدرسوا بعض المواد الضرورية مثل الكيمياء والطبيعة واللغة الأجنبية. اجتمع مجلس المعارف لدراسة الحالة وأصدر قراره المبني على حاجة البلاد إلى متخصصين في مجالات القضاء والعلوم والهندسة والطب برقم ١٧ في ١٣٥٥/٢/٢٩هـ بإنشاء مدرسة ثانوية تضم قسمين أدبي وعلمي ويعين بها مدرسون أكفاء من الداخل والخارج ويلتحق بهذه المدرسة حملة شهادة المعهد العلمي السعودي أو من يتقدم لاختبار فيما يعادل شهادة المعهد ويحدد مدير المعارف العام مواد ومدة الدراسة وتسمى مدرسة تحضير البعثات.

طلب الأستاذ طاهر الدباغ مدير المعارف العام إلى نائب جلالة الملك في الحجاز الموافقة على إنشاء المدرسة. وافق سموه وأحال القرار إلى مجلس الشورى الذي وافق بالإجماع.

وبعد استكمال الترتيبات بدأت الدراسة في مطلع عام ١٣٥٦هـ واختير السيد أحمد العربي لإدارة المدرسة. تعلقت الآمال بطلاب هذه المدرسة وسافر أول فوج بالبحر وأقيم لوداعهم حفل رسمي في جدة عام ١٣٦١هـ وودعهم مدير المدرسة بقصيدة في الحفل منها:[1]

خفضي السير يا عروس الحجاز
وارفقي في سراك بالأسفار
إنما تحملين آمال جيل
زاهيات كأنضر الأزهار
فلقد مهد السبيل إلى النهضة
(عبدالعزيز) فخر نزار

- دار التوحيد: التعليم في فكر الملك عبدالعزيز هو أداة الصلاح، فلا نهضة إلا بالعلم، وهو أيضًا حقٌّ لكل مواطن. أدرك الملك بدافع حرصه على مصلحة كل مواطن أن كثيرًا من المواطنين لا يرحبون بالتعليم في صيغته الحديثة: بعضهم يقاوم التعليم من مفهوم ديني خاطئ، وبعض يشك في مستقبل أبنائه بعد التعليم. لذلك قرر افتتاح مدرسة دينية في مدينة الطائف تدرس العلوم الدينية واللغة العربية وآدابها والتاريخ الإسلامي.

قرر رحمه الله إلحاق مائة طالب من أهل نجد لأن النجديين كانوا أشد مقاومة للتعليم الحديث. وأقدر أن الملك أراد إدخال الشباب النجديين إلى رحاب التعليم الحديث من بوابة التعليم الديني. وهذا رأي سديد لأن التعليم عملية

بالمملكة العربية السعودية. ثم وجه دعوة إلى رؤساء جامعات عربية من مصر وسوريا ولبنان والسودان والعراق للمشاركة مع بعض رجالات التعليم بالمملكة في دراسة توصيات اللجنة السابقة واقتراح نظام تأسيسي للجامعة.

وبتصميم غير مسبوق وخلافًا لآراء متشددة عارضت قيام الجامعة لما تصوروه من صعوبات في إنشائها، تقدم الأمير الوزير إلى جلالة الملك بالنظام المقترح للجامعة. وبعرض الموضوع على مجلس الوزراء أصدر الملك سعود مرسومًا ملكيًا برقم ١٧ في ١٣٧٧/٤/٢١هـ يقضي بإنشاء جامعة الملك سعود وبرئاسة الوزير الأول للمعارف. وبدأت الجامعة بكلية العلوم التحق بها عشرة طلاب عام ١٣٧٩هـ.

سادسًا: تعليم البنات:

قامت وزارة المعارف برعاية المدارس الأهلية للبنات، وبعد مشاورات صدر مرسوم ملكي بفتح مدارس حكومية لتعليم البنات وأنشئت الرئاسة العامة لتعليم البنات برئاسة سماحة مفتي المملكة. ورغم المعارضة الشديدة من بعض الناس، انتشرت المدارس ومعاهد إعداد المعلمات.

سابعًا: جامعة الملك عبدالله للعلوم والتكنولوجيا:

رغبة في تطوير البلاد علميًا واقتصاديًا مع التمسك بمبادئ الدين الحنيف قرر خادم الحرمين الشريفين إنشاء جامعة للعلوم والتكنولوجيا في مدينة الملك عبدالله الاقتصادية عام ١٤٢٦هـ التي ستنشأ في (رابغ) إحدى ضواحي مدينة جدة. ووجه حفظه الله أن تضم هذه الجامعة أرقى الكليات التي تدرس التخصصات العلمية الراقية ويُختار لهيئة التدريس فيها أفضل الكفاءات. وأن تفتح أبوابها للبارزين والمتفوقين من الطلاب من داخل المملكة وخارجها.

وثقةً من الملك عبدالله في كل ما هو جديد في مجالات العلوم والتكنولوجيا والاقتصاد أوكل أمر التخطيط والبناء للجامعة إلى شركة أرامكو السعودية.

ثامنًا: مشروع الملك عبدالله لتطوير التعليم:

أصدر خادم الحرمين الشريفين أمره الكريم بتطوير جميع مسارات التعليم لمواكبة التقدم العلمي وذلك بالإسراع في استكمال المباني المدرسية وتجهيز المدارس بالجديد في مجال تكنولوجيا التعليم إلى جانب النهوض بالمعلم. وخصص لهذه المهمة مبلغ تسعة آلاف مليون ريال.

ولعلّ هذا المشروع يمثل اهتمام ولاة الأمر في البلاد بالتعليم منذ عهد الملك الباني والقائد المؤسس جلالة الملك عبدالعزيز وأبنائه البررة من بعده أصحاب الجلالة الملوك سعود وفيصل وخالد وفهد رحمهم الله جميعًا.

وما تزال المسيرة حية ومتقدمة في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز، ويعاونه في ذلك صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز ولي العهد ووزير الدفاع والطيران والمفتش العام الذي كان أول رئيس للجنة العليا لسياسة التعليم، ورعى إنشاء عدد من الجامعات، ودشن العديد من برامج التحديث والتطوير.. حفظ الله لنا ديننا وحرس بلادنا.. وأيّد قادتنا، ووفق أبناء وبنات شعبنا للنهوض ببلادنا. ■

الهوامش

(١) اعتمدت في هذه المقالة على كتابي بعنوان: رؤية جديدة الصادر عام ١٤١٩هـ عن النادي الأدبي بالمنطقة الشرقية.
(٢) د. سعيد بن عطية ابو عالي: رؤية جديدة، ص ١٤ - ١٥.
(٣) نفس المصدر، ص ٥٧.
(٤) نفس المصدر، ص ٥١.
(٥) نفس المصدر، ص ١٢١ - ١٢٦.
(٦) نفس المصدر، ص ١٢٧ - ١٣٢.
(٧) نفس المصدر، ص ١١٥.